الجزائر والهوية الأمازيغية

أ . عبد الوهاب زيان*

مقدمة :

إن عالمنا اليوم مليء بالنزاعات والانقسامات ، رغم وجود تكتلات واتحادات ، فبقدر ما تسعى بعض الحكومات إلى إزالة الحواجز بين دولها لتوحيد شعوبها لمواجهة خطر العولمة ، التي فرضت نفسها بفعل التطور التكنولوجي الهائل ، نجد دولا أخرى تعاني صراعات وانشقاقات حتى في حدود الدولة الواحدة .

نجد في هذه الدول انبعاثا جديدا للثقافات الأصلية مقابل تراجع الثقافات العصرية . إن ذلك كائن في مجتمعات العالم الثالث التي لم تدرك بعد ولم تع وعيا حقيقيا خطر العولمة التي تتسارع في الانتشار .

إن التواصل بين الثقافات والحوار بين الحضارات ، يؤدي إلى تفاهم متبادل إذا ما توافرت الشروط الملائمة ووجد أجيالا واعية تحمل على أعتاقها عبء هذا التواصل والرغبة والإرادة في التبادل .

لكن إذا لم تكن النخب في هذه الدول في مستوى التطلعات وإذا لم تعزز بالمواقف والقرارات من قبل الهيئات والحكومات قد يؤدي ذلك إلى صدام بين الحضارات والثقافات ، أمام عجز في الداخل وتربص بالخارج .

أولا: مفهوم الهوية[1]

يشتق المعنى اللغوي للهوية من الضمير : هو ، ويشير مفهوم الهوية إلى ما يكون به الشيء هو هو ، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته ، وتمييزه عن غيره ، فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري .

وتأسيسا على المقاربة الفلسفية ، تعبر الهوية عن حقيقة الشيء

* معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره ، كما تعبر عن خاصية المطابقة ، أي مطابقة الشيء لنفسه أو لمثيله ، وبالتالي ، فهوية شعب ما تعني الخصائص والمميزات النفسية والاجتماعية والثقافية والجغرافية ، التي تجمعهم وتعبر عن كيانهم ، فهم متشابهون فيما بينهم وفي نفس الوقت متمايزون عن غيرهم ، فمن الصعب أن نتصور شعبا بدون هوية ، أو نقتنع بما يزعمه (شايغان داريوس) أن الهوية صورة مغلوطة للذات لقد أثبتت الدراسات السوسيولوجية ، أن لكل جماعة أو أمة مجموعة من الخصائص والمميزات الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والمعيشية التي تعبر عن كيانهم ، حيث ينصهرون فيه وينسجمون ويتشابهون بتأثير هذه الخصائص والمميزات التي تجمعهم .

ثانيا : أشكال الهوية[2]

أ) الهوية الثقافية :

قبل التطرق إلى الهوية الثقافية تجدر الإشارة إلى مفهوم الثقافة ، يعرفها تايلور على أنها « الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة ، والاعتقاد والفن والحقوق والأخلاق والعادات ، وكل قدرات وأعراف أخرى اكتسبها الإنسان كفرد في مجتمع » [3] وبذلك فإن الهوية الثقافية لشعب ما ، تتحدد على أساس ثقافته التي تعتبر المرجعية الأساسية للتمييز بين المجتمعات ، ولقد أدى تبني الثقافة للتمييز بين المجتمعات ، إلى ظهور الثقافوية لدى الأنتروبولوجيين وعلماء الاجتماع أمثال : كاردينر وما لكليلاند ولينتون وبنديكت ، ابتداء من أواخر القرن 19 . [4]

ب) الهوية التاريخية : [5]

عندما تجتمع الأحداث التاريخية في صنع ملمحة شعب ما أو قوم ، فإنهم يتشابهون في مرجعيتهم التاريخية التي تميزهم عن غيرهم ، وقد تندرج فيها عدة شعوب ، مثلما كان الحال في لخمسينيات من القرن الماضي ، حيث ظهرت موجهة التحرر في دول إفريقيا وأسيا وظهر تكتل للدول الأفروأسيوية تحت نطاق التحرر ورميا إلى التموقع في إطار الثنائية القطبية ، باسم مجموعة 77 وكذلك دول عدم الانحياز وفيما بعد فتحت الباب لظهور العلاقات جنوب جنوب .

ج) الهوية السياسية : [6]

بالرغم من أن الاتجاه الثقافوي ، هو الأكثر بروزا لدى علماء الأنتروبولوجيا للتمييز بين المجتمعات ، إلا أن الهوية السياسية هي التي أصبحت تميز المجتمعات وتفصل بين الدول ، من خلال ضمها شعبا أو أمة في حدود جغرافية معينة لقد ظهرت الهوية السياسية ، بظهور القوميات الأوروبية في القرن 18 ، فتوحدت الجمهوريات الفرنسية والايطالية كذلك وتقوم الهوية السياسية على مجموعة من المقومات وتتمثل في :

- المجال الجغرافي المشترك .
- التاريخ المشترك .
- ثقافة شعبية مشتركة .
- لغة مشتركة .
- منظومة حقوق وواجبات مشتركة .
- اقتصاد مشترك .

د) الهوية الدينية :

يطلق عليها الهوية الدينية أو الهوية العقائدية وظهرت بظهور الأديان والرسل ، ولكنها تجلت أكثر بمجيء الإسلام ، فجعل الله الدين رابطة قوية ، بل هي أقوى من الروابط الأخرى بقوله ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾ [7] وقوله ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ [8] ولقد جمع الدين الإسلامي عبر التاريخ في الدول التي قامت على أنقاض الخلافة الراشدة بين تركيبات حضارية متنوعة ، كالحضارة الفارسية والعربية والأمازيغية والأوروبية .

ثالثا: الهوية الأمازيغية

عندما نتحدث عن الهوية الأمازيغية ، تتجه الأذهان إلى الشخصيات التي خلدت أسماءها عبر التاريخ ابتداء من شاشناق إلى ماسينيسا فالكاهنة وإلى فاطمة لالا نسومر ثم إلى العقيد عميروش ويدور في الأذهان كذلك ، اللغة الأمازيغية وسكان شمال إفريقيا .

تستند الهوية الأمازيغية إلى الهوية السياسية وإلى الهوية الثقافية ، باعتبار شمال إفريقيا موطنا للأمازيغ وباعتبار اللغة والثقافة الأمازيغية

والعادات والتقاليد التي حافظوا عليها على مر العصور بالرغم من تتالي الاستعمارات من بين هذه العادات نذكر ثيمشرط ، ثيويزي ، ثاجمعث لقد انصهرت الهوية الأمازيغية في الهوية الدينية بعد مجيء الإسلام إلى شمال إفريقيا ، ثم انصهرت تحت نطاق الهوية السياسية بعد انقسام شمال إفريقيا بعد سقوط دولة الموحدين ، وتجسد ذلك أكثر بعد استقلال الجزائر التي لم تفسح المجال أمام بروز الهوية الأمازيغية ، بدعوى وحدة الوطن والاحتجاج بالإسلام لفرض العروبة وغض الطرف عن الأمازيغية .

رابعا : الأمازيغية في الجزائر قبل الاستقلال

لم تشكل الهوية الأمازيغية ، أزمة ولا قضية أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر ، وذلك بالرغم من محاولات الاستعمار للتفريق بين الجزائريين انطلاقا من الأمازيغية للتمييز بين العرب والقبائل إلا أنها لم تفلح .

لقد رد الثوار الجزائريون على هذه المحاولات ، بعقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 بمنطقة الصومام ، لتفنيد دعوى فرنسا أنها أحكمت قبضتها على منطقة القبائل وعلى أن الجزائريين صف واحد ، وهمهم الوحيد هو تصفية الاستعمار .

لكن يرى بعض المؤرخين أن مرحلة ما قبل الثورة ومرحلة الثورة المسلحة ، كانت مرحلتي إقصاء للبعد الأمازيغي في الهوية الوطنية والتركيز على البعد العربي والإسلامي وكان لهذا أثر كبير بعد استقلال الجزائر .

خامسا : الأمازيغية بعد الاستقلال

بعد استقلال الجزائر في 5جويلية 1962 ظهر الانشقاق في صفوف الحركة الوطنية بخروج حزب جبهة القوى الاشتراكية بزعامة أيت أحمد عن النظام ، ولكن سرعان ما تم رأب الصدع في سنة 1963 ، وبعد الانقلاب في جون 1965 ، واعتلاء هواري بومدين لهرم السلطة ، ازداد التركيز على البعد العربي ضمن مجموعة حزب البعث العربي الاشتراكي الذي وجد جذورا له في مصر والعراق وسوريا .

حتى أن أمرية أفريل 1976 [9] الخاصة بتنظيم التعليم في الجزائر ، أهملت تماما اللغة الأمازيغية ، بل همشتها حتى في التعاملات اليومية

وألقي ببعض الشخصيات في السجن أمثال السعيد سعدي والأخر في المنفى أمثال أيت أحمد وعبان رمضان ، وأدى هذا الاحتقان إلى الانفجار سنة 1980 في تيزي وزو [10] لفتح المجال أمام اللغة الأمازيغية ووقف التعريب بالجامعة .

لقد أدت أحداث أفريل 1980 إلى ميلاد البعد الأمازيغي من جديد ، ولكن بصورة غير بارزة بسبب التعتيم الإعلامي ، وجاء موعد 05 أكتوبر 1988 لتجد اللغة الأمازيغية متنفسا لها من خلال الأحزاب السياسية وحرية التعبير وحرية الصحافة ، إلا أن الدولة لم تقم بأي خطوة رسمية لإبراز البعد الأمازيغي ضمن الهوية الوطنية أمام بروز التيار الإسلامي والعروبي ، إلى أن جاءت سنة 1998 [11] أين تم اغتيال الفنان القبائلي معطوب لوناس ، حيث خرجت جموع المواطنين في الولايات الثلاثة : تيزي وزو بجاية والبويرة مطالبة بلجنة تحقيق في اغتياله وكذلك المطالبة بتدريس الأمازيغية ، وكانت البداية محتشمة ، إلى غاية صدور أمرية جانفي 2008[12] والتي صرحت في المادة 34 بتدريس اللغة الأمازيغية عبر الوطن ، ورغم ذلك فإن تجسيد هذا على أرض الواقع مازال في بداياته ، إلا أن المكسب الأول يتمثل في الاعتراف الرسمي بالهوية الأمازيغية للجزائر .

الهوامش والمراجع:

1 ـ محمد إبراهيم عيسى : الهوية والقلق والإبداع ، دار القاهرة ، 2002 ، طبعة1 ، ص11 .
2 ـ محمد العربي ولد خليفة : مسألة الهوية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دون ذكر السنة ، ص19 .
3 ـ ريمون بودون وفرانسوا بوريكو : المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، تر : سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 ، الطبعة الأولى ، ص128 .
4 ـ معن خليل عمر ، نفس المرجع ص228 .
5 ـ محمد إبراهيم عيسى : مرجع سابق ، ص50 .
6 ـ محمد العربي ولد خليفة : مرجع سابق ص51 .
7 ـ سورة الحجرات ، الأية : 10 .
8 ـ سورة المؤمنون ، الأية : 52 .
9 ـ الجريدة الرسمية : القانون التوجيهي للتربية الوطنية ، أفريل 1976 .
10- Dalila Arwki : l'identité, Bébere,Atlantica, paris 2004 , P122
11- Ibid, P128 .
12 ـ الجريدة الرسمية : القانون التوجيهي للتربية الوطنية ، العدد ، جانفي . 2008 .